

تفسير البحر المحيط

. @ 273 @

التغابن : تفاعل من الغبن وليس من اثنين ، بل هو من واحد ، كتواضع وتحامل . والغبن : أخذ الشيء بدون قيمته ، أو بيعه كذلك . وقيل : الغبن : الإخفاء ، ومنه غبن البيع لاستخفائه ، ويقال : غبت الثوب وخبنته ، إذا أخذت ما طال منه عن مقدارك ، فمعناه النفس . .

{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْخَزَائِرُ وَهُوَ عَلِيمٌ * شَدِيدُ الْقَدِيرِ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خُلِقَ * السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ * وَصَوَّرَكُمْ فَأَنْحَسَنَّ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُسُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُاُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَادُوا بِالدِّينِ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَوَلَّيْتُمْ رُسُلَهُمْ بِالْأَيْدِي نَاتٍ فَكَفَرُوا * يَهْدُونَنَا فَكُفِرُوا * وَتَوَلَّوْا * وَاسْتَغْنَى اللَّهُ * وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا * قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ * بِمَا عَمِلْتُمْ * وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَتَأْمِنُوا } . .

هذه السورة مدنية في قول الأكثرين . وقال ابن عباس وغيره : مكية إلا آيات من آخرها : { الْمُؤْمِنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ } الخ ، نزلت بالمدينة . وقال الكلبي : مدينة ومكية . .

ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أن ما قبلها مشتمل على حال المنافقين ، وفي آخرها خطاب المؤمنين ، فأتبعه بما يناسبه من قوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ } ، هذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله : كل مولود يولد على الفطرة ، وقوله تعالى : { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } . وقيل : ذاك في أصل الخلقة ، بدليل ما في حديث النطفة من قول الملك : أشقي أم سعيد ؟ والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع يوم طبع كافراً . وما روى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال : (خلق الله فرعون

{ في البطن كافراً } . وحكى يحيى بن زكريا : في البطن مؤمناً . وعن عطاء بن أبي رباح : { فَمِنْكُمْ كَافِرٌ } بـ ، { مَوْءَانٍ } بالكواكب ؛ ومؤمن بـ وكافر بالكوكب . وقدّم الكافر لكثيرته . ألا ترى إلى قوله تعالى : { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } ؟ وحين ذكر الصالحين قال : { وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } . وقال الزمخشري : فمنكم آت بالكفر وفاعل له ، ومنكم آت بالإيمان وفاعل له ، كقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الذُّبُورَ وَالْكَتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } ، والدليل عليه قوله تعالى : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } : أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من قبلكم ، والمعنى : الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين . انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . وقال أيضاً : وقيل : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ } بالخلق : هم الدهرية ، { وَمِنْكُمْ مَّوْمِنٌ } به . وعن الحسن : في الكلام حذف دل عليه تقديره : ومنكم فاسق ، وكأنه من كذب المعتزلة على الحسن . وتقدم الجار والمجرور في قوله : { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ } ، قال الزمخشري : ليدل بتقدمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بـ عز وجل ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه ، والقائم به المهيمن عليه ؛ وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه . وأما ملك غيره فتسليط منه ، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده . .

وقرأ الجمهور : { مَوْءَانٍ } بضم الصاد ؛ وزيد بن عليّ وأبو رزين : بكسرهما ، والقياس الضم ، وهذا تعديد للنعمة في حسن